المؤرخون في العصور الوسطى (*)

د. بيريل سمالي

مراجعة: محمود السيد دغيم

خُلق الإنسان وخلقت معه الإرادة والأحاسيس والعاطفة والعقل وحباه الخالق سبحانه بالنطق واللغة والكتابة، مما مكّنه من المقدرة على الاحتفاظ بتجارب الأجداد إلى مَنْ بعدهم مِنَ الأحفاد، وبذلك وفَّرَ السابقـون على اللاحقين المزيد من الجهود والتجارب، إذ خلفوا لهم قوالب جاهزة لتشييد برج المعرفة الإنسانية. وما الأعمال التي وصلت إلينا مما خلفه الأوائل سوى إناء حفظ تجارب قيمة، وبما أن الإنسان مؤثِّر ومُتأثِّر، فاعل ومنفعل، فقد خضعت تلك الآثار للصبغة الذاتية مما حرفها عن العلمية المنزهة عن النوازع الشخصية وذلك بنسب متفاوتة بين كاتب وآخر.

والكتاب الذي بين أيدينا يرصد أعمال المؤرخين في العصور الوسطى من خلال تفحصه لها، ملتزماً الطريقة العلمية قدر الإمكان حسبما زعمت المؤلفة. وقد صدَّر المترجم الكتاب بتقديم أوضح من خلاله مغالطة اصطلاح « ما قبل التاريخ » واقترح استبداله بمصطلح [« ما قبل التاريخ المكتوب: » للدلالة على تلك الفترة »] (ص ٧) لأن التاريخ قد لازم الإنسان منذ ما قبل تعلمه الكتابة والقراءة، والتاريخ ضرورة اجتماعية لازمت الإنسان الاجتماعي. كما أوضح المترجم خط سير الكتاب المُترجم وعرّف بمؤلفته.

ومن ثم جاءت مقدمة الكتاب التي وضعتها المؤلفة، فأوضحت من خلالها أنماط الكتابة التاريخية في العصور الوسطى وطريقتها في تناول الأحداث، كما أوضحت نهج الكتاب في تناول تلك الأنماط.

وبعد المقدمة تتابعت فصول الكتاب فكان الأول منها في موضوع **ظروف الكتابة التاريخية في العصور الوسطى (Conditions)** حيث ناقشت المؤلفة أسباب الكتابة التاريخية ودوافعها وخلصت إلى القول بأن رجل الدولة المتقاعد كان النموذج الأمثل للمؤرخ في العصور القديمة، بقصد تزجية الفراغ. في حين انقسم الكتاب إلى قسمين منه القسم الأول آباء الكنيسة الذين اعتبروا ثقاة في مجال الأدب المقدس، وضم القسم الثاني الشعراء وكتاب النثر الكلاسيكيين ومن اهتم بالآداب الدنيوية. كما تطرقت

(*) تأليف الدكتوره بيريل سمالي Dr. (Beryl Smalley)، ترجمة د. قاسم عبده قاسم. منشورات دار المعارف بمصر ١٩٧٩ [٢٤٨ صفحة].

لتطور صناعة الكتابة مع اختراع النظارات سنة (١٣٠٠ م) ومع ظهور الجامعات والمدارس وظهور حافز الربح المكتبي. وأوضحت المؤلفة أن الكتب في العصور الوسطى كانت تخاطب الأذن لأن الاتصال بين المؤلف وجمهوره كان اتصالاً شفهياً، «وبقدر نصيب كتاب العصور الوسطى من الثقافة الكلاسيكية كان يتحدد التزامهم بالتقاليد القديمة أو تعديلهم إياها» (ص ٢١) مع بقاء الولاء للقديم.

وتناولت المؤلفة **التراث الروماني** (ص ٢٣) في الفصل الثاني، فأكّدت تمييز القدماء بين كُتّاب الحوليات والمؤرخين حيث «كانت للتاريخ مكانته في التعليم عند الرومان باعتباره فرعاً من فروع البلاغة» (ص ٢٤) أمّا الحوليات فكانت تستخدم كمراجع ليس لها صفة أدبية. ثم أوردت المؤلفة رأي شيشرون في رواية التاريخ ونقدته بقولها: «إن شيشرون قد أعلى من شأن البلاغة على حساب التاريخ» (ص ٢٦) وأوضحت أن مطالعات مؤرخي العصور الوسطى كانت تخضع للمزاج وتوفر المادة حتى أن المؤرخ لم يكن يلتزم دقة التواريخ **فسالست** (٨٧ - ٣٦ ق.م) تناول «التاريخ باعتباره فرعاً من فروع علم الأخلاق الذي كان بدوره من فروع البلاغة» (ص ٢٩) وصارت الاقتباسات والعبارات المأخوذة عن **سالست** تشكل جزءًا هاماً في بنية المؤلفات التاريخية التي كتبت آنذاك. كما أشارت إلى أن مؤرخي العصور الوسطى قد عرفوا «كتابة التراجم كموضوع من موضوعات التدوين التاريخي من خلال كتاب سويتونيوس (Svetonius)/٧٥ - ١٦٠/تراجم القياصرة» (ص ٣٠). وقامت المؤلفة بعرض محتويات الكتاب الذي يبدأ بيوليوس قيصر وينتهي بدوميثان (Domitanus)، كما أشارت إلى «موضوع آخر للتراجم هو المراثي التي ترجع في أصلها إلى الخطابة الجنائزية التي كانت بدورها ضرباً من ضروب البلاغة» (ص ٣١) وعرضت كتاب «الأفعال والأقوال المأثورة» لفاليريوس مكسيموس (Valerius Maximus) الذي تناول التاريخ على شكل أمثلة ونوادر وسمته «بالتاريخ المعلب» ومن ثم نقدت رأي ايسيدور الإشبيلي (٦٣٦ م) مؤلف «الاشتقاقات» لأنه يقول بضرورة كون المؤرخ شاهد عيان لكي يؤرخ الحقيقة وأوضحت أن شاهد العيان قد لايدلي بالحقيقة بدافع دعائي أو عاطفي.

أما الفصل الثالث فقد تطرقت المؤلفة لموضوع **التراث اليهودي - المسيحي** (ص ٣٩) حيث أوضحت أهمية الكتاب المقدس كوسيلة لفهم الكتابات التاريخية. وفصلت في مفهوم الزمن قبل المسيح عليه السلام وبعده وما تبعه من تفسيرات إلى فترات تشمل التاريخ المقدس والتاريخ الدنيوي إذ «قسم أوغسطين تاريخ العالم إلى عصور ستة، تماثل المراحل الست في عمر الإنسان من طفولته إلى شيخوخته» (ص ٤٤) وقد لحق بمفهوم العصور الستة مفهوم «الممالك العالمية الأربع» كتقسيم دوري للتاريخ العالمي. وخلصت المؤلفة إلى أن أول طراز مسيحي واسع النطاق في التدوين التاريخي هو ذلك الذي كتبه ايوسيبيوس أسقف قيسارية في «التاريخ الكنسي» سنة ٣٢٥ م ثم عرضت كتاب أورسيوس «التاريخ ضد الوثنيين» الذي كان **«صورة فظيعة للتاريخ كسجل لجرائم البشر وحماقاتهم»** (ص ٥٦) **بالإضافة الى عرض «سير القديسين «Hagiography» من خلال عرضها لسيرتين إحداهما لناسك والأخرى لأسقف.**

وانتقلت المؤلفة إلى موضوع **التراث البربري والعصور الوسطى الباكرة** (ص ٦٥) في الفصل الرابع فأكدت «أن أصول البرابرة لا تزال مجهولة حتى اليوم» (ص ٦٦) رغم ما تم اختراعه من أصول عريقة أقحمت من لا تاريخ له حلبة التاريخ. وبعد ذلك أوضحت مراحل تطور الكتابة التاريخية التي بدأت في «الحوليات» ثم «كتاب البابوات» الذي كان «النموذج الذي صيغت على نهجه أعمال الأساقفة ومقدمي الأديرة» (ص ٧٥) وما تبعه من «تاريخ الأديرة» وتاريخ «بلاط الأمراء» حيث «لحق التاريخ المحلي بالرسائل التاريخية كبديل عن التاريخ العالمي أو

تواريخ الشعوب كما كان له مرادفه العلماني الذي تمثل في أعمال الأمراء أو تواريخ العائلات الدوقية » (ص ٧٦) ثم أشارت المؤلفة إلى الفروق الرئيسة بين مؤرخي العصور الوسطى والمؤرخين المحدثين من خلال مفهومي الزمان والمكان إذ « التحم الماضي بالحاضر وتشابه الحاضر مع الماضي في عيني مؤرخ العصور الوسطى الذي لم يكن لديه أي احساس بالتغير الزمني » (ص ٧٨) بينما امتلك المحدثون الإحساس بذلك التغير بدرجات متفاوتة.

وخصصت المؤلفة الفصل الخامس للبحث في التراجم الملكية (٨٠٠ م - ١١٥٠ م) فأكدت أن تلك التراجم تشترك « في سمة عامة هي: أنها مؤلفات دعائية » (ص ٨١) وذلك ما يلمس من خلال « سيرة شارلمان » لإينهارد (Einhard ت ٨٠٤ م) رغم ما يتسم به من علمانية وسير على نهج سويتونيوس في بناء الكتاب. ومن خلال ما كتبه تيجان (Thegan) عن حياة « لويس التقي » إضافة لما كتبه مؤلف مجهول يسميه المؤرخون المحدثون بالفلكي (Astronomer) عن حياة « لويس التقي » أيضاً، ثم عرضت المؤلفة نماذج من السير لتأكيد رأيها مثل كتاب « حياة شارلمان » لأسير (Asser) (ت ٨٩٣) وكتاب « قصة حياة الملك الفرنسي » روبير التقي لهيلجالد (Helgad) (ت ١٠٣١) المسمى « بالخلاصة » وكتاب « ترجمة الامبراطور كونراد الثاني Conrad II » (١٠٤٦ م) للقسيس ڤيبو (Wipo) الذي استطاع أن يكتب كشاهد عيان، وكتاب « حياة هنري الرابع » لكاتب مجهول كتبه على شكل مرثية جنائزية وقد « غاص المؤلف المجهول في أغوار مشكلة السببية » (ص ٩٥) وفي سياق الحديث عن المؤلفات الدعائية أوردت المؤلفة ذكر كتب خصصت للثناء على الملكات مثل كتاب « الثناء على الملكة اما Emma » وهو كتاب مديح لها ولعائلتها وذكرت من كتب التراجم المحلية كتاب « حياة لويس السمين » لسوجير (Suger ت ١١٥١ م) حيث اختفت « الدراما والخيال والكتابة المتألقة » (ص ٩٧) ودارت الترجمة حول جزيرة فرنسا Ile-de-France- وبعد هذا ميزت المؤلفة بين أنماط الكتّاب بقولها « كان الكتّاب من رجال الكنيسة الذين يرون التاريخ من خلال عدسات كنسية، ولكن المؤرخ العام لا يلتزم بالخط الجاهز كما يفعل مؤلف الترجمة » (ص ٩٩).

وفي الفصل السادس تطرقت المؤلفة لموضوع. التاريخ، المدونة، البحث التاريخي (٩٥٠ - ١١٥٠) (ص ١٠٤) فأكدت « توقف التدوين التاريخي باستثناء الحوليات في أوروبا فيما بين أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر » (ص ١٠١) بسبب الحروب ما عدا تاريخ ريمس (Rheims ت ٩٦٦) الذي قدمه القسيس فلودورد (Flodoard) ثم انتقلت بالحديث إلى « تاريخ الصالونات Salon history » من خلال عرض ما كتبه المتعصبون الكلاسيكيون، لويد براند (ت ٩٧٢ Liud prand) وويدوكند (Widukind) وريشر (Richer)، وهروتسيتا (Hrotswitha ت ٩٦٢). ومن ثم ناقشت ما كتبه برونو (Bruno) « عن الحرب السكسونية » تحت شعار سكسونيا للسكسونيين. حيث خلط برونو بين مختلف أساليب التدوين التاريخي كما ناقشت المدونة الأنجلو - سكسونية « من حيث كونها سجلاً متصلاً للأحداث التي كتبت باللغة المحلية الدارجة » (ص ١٢٦) وبعد هذا عرضت قصة « تحول كتّاب التاريخ الكنسي إلى كتاب عن تاريخ العالم المسيحي » (ص ١١٢) من خلال ما كتبه أوردريك فيتاليس (Orderic vitalis) عن تاريخ الانجلو - نورمان السياسي حيث كان كتابه تاريخ الفكر آنذاك. ومن خلال كتاب « أعمال الأساقفة » لوليم الماسبوري (William of malmesbury) الذي « أظهر مقدرة طيبة على الفصل بين التاريخ المقدس والتاريخ الدنيوي » (ص ١١٨). وتخلص إلى القول - في نهاية الفصل - أن معظم المؤرخين قد تأثروا بالنبوءات.

ثم انتقلت إلى الفصل السابع فبحثت في التاريخ العالمي (ص ١٢٣) الذي ازدهر لدى « هوف راهب فليري »

(Hugh of Fleury) بعد سنة ١١١٧ م، في كتابه «تاريخ الملوك المحدثين» المتضمن محاولة يشوبها التردد للملاءمة والتوفيق بدلاً من مجرد تجاهل نظرية النقل وقد اتخذ كتابه «شكل مدونة تاريخية عالمية يستخدم كدليل لطلاب الآداب واللاهوت» (ص ١٢٩). وتلميذه جود فرى (God Frey) مؤلف كتاب «الكون الأصغر Micracosmos» وأوتو الفريزي الذي تألق كمؤرخ مفكر امتاز برؤيته الفردية وعقليته الفاحصة في كتابه «تاريخ المدينتين» الذي كتب ما بين سنة ١١٤٣ م وسنة ١١٤٥ م تقريباً. «ويرمز اعتدال أوتو وضبطه لنفسه إلى مستقبل الكتابة التاريخية في العصور الوسطى» (ص ١٣٩).

وبعد هذا عالجت المؤلفة تاريخ الخدمة المدنية (ص ١٤١) في الفصل الثامن. فأكدت وجود الخدمة المدنية في القرن الثاني عشر استناداً لما جاء في كتاب «مصرع شارل الطيب» تأليف جالبرت البروجي (Calbert of Bruges) الذي تتبع «سلسلة الأحداث المتداخلة حتى إعادة إقرار السلم ثم أضاف مقدمة وعدة فصول لشرح أصول النزاع» (ص ١٤٣) دون أن يقع في منزلق الثقة بالعناية الإلهية. كما استندت لكتاب «حوليات جنوا» التي تبدأ بحولية كفارو (Caffaro ١٠٩٩ - ١١٦٦ م) المتميز بعقليته العلمانية. وكتاب «تاريخ البابوات» لحنا السالسبوري (John of salisbury) «الذي اتخذ من مجمع رمس سنة ١١٤٨ م بداية له وتوقف عند سنة ١١٥٢ م» (ص ١٤٨) وكان أشبه ما يكون بمذكرات عالم دبلوماسي ثم عرضت مدونة روجر الهاودني (Roger of Hawden) الذي شغل منصب قاضي الغابة (ما بين سنة ١١٨٥ و١١٩٠) وشارك بالحملة الصليبية الثالثة كما عرضت مدونة رالف الديسي (Ralph of Diss) وهي «مختصر المدونات التاريخية» وتصل إلى عام (١١٤٧ م) بطريقة ترتيب الأحداث بشكل متطور يوفر الوقت على الباحثين.

وفي الفصل التاسع بحثت المؤلفة الغزو والحروب الصليبية (ص ١٥٩) فوصفت الصليبيين بالتعصب والانتهازية حيث «استغلوا الحروب المقدسة لتحقيق مآرب غير مقدسة» (ص ١٥٩) وأسفت لفشل «اللاتين في تأسيس مملكة دائمة في فلسطين» (ص ١٥٩) وبذلك اتضح تعصب المؤلفة ذاتها وخروجها من المنهج العلمي إلى مواقع الانحياز. ثم أشارت إلى أن الحروب الصليبية قد أنتجت «كتاباً علمانيين ومؤلفات تاريخية وطنية كما تطور الأدب العلماني بفضلها» (ص ١٦٣) وعرضت على سبيل الاستشهاد كتاب «أعمال أساقفة بريمن» للاستاذ آدم البريمي (Master adam of Bremen) الذي «يصف الصراع الثلاثي الأركان بين السلاف والأمراء والأساقفة» (ص ١٦٤) وكتاب «مدونة السلاف» للقسيس هلمولد (Helmold) الذي امتاز بالنقدية والعلمية إذ روى «قصة شعوب ثلاثة هي شعوب السكسون والدانمرك الذين قاموا بالغزو، والسلاف الذين كانوا يعيشون في المنطقة» (ص ١٦٧) وكتابين «عن طوغرافية إيرلندا» و«عن غزو إيرلندا» لجيرالد كامبرنسيس (Girald Cambrnsis ت ١٢٢٠ م) الذي أوجده الغزو الأنجلو - نورداني - وبعد أن قارنت المؤلفة بين جيرالد وآدم وهيلمولد تعرضت لثلاث مؤلفات هي «أعمال الفرنجة» لكاتب مجهول و«تاريخ الأعمال التي تمت فيما وراء البحار» لوليم الصوري (William tyre) و«غزو القسطنطينية» لجيوفري الفيلهاردويني (Geoffrey of Ville Hardouin) ثم انتقلت للبحث فيما نتج عن الحملة الصليبية الالبيجنسية بقيادة سيمون دي مونتفور (Simon de Montfort)، من مؤلفات، فعرضت كتاب الراهب السترشي بطرس راهب دير فودي سيرناي (Voux de Cernai) «تاريخ الحروب الصليبية الالبيجنسية» الذي توقف عند سنة ١٢١٨ م والذي دونه مؤلفه باللاتينية وفقاً للتسلسل الزمني ثم عرضت مدونة تاريخية لاتينية قصيرة لوليم البيلهيسوني (William of pelhisson ١٢٦٧) وأخرى لوليم البيلورنسي (William of Puylaurens) امتازت ببزوغ ضوء السببية في ثناياها ثم

اختتمت المؤلفة الفصل بما كتبه شاعران باللغة البروفنسالية إذ بدأ أحدهما «أنشودة الحملة الصليبية ضد الالبيجنسين» وهو القسيس وليم الطليطلي (William of tudela) من سنة (١٢١٠ - ١٢١٣ م) وأكملها ثانيهما من سنة (١٢١٣ إلى سنة ١٢١٨/١٢١٩)» وتوقفت الأغنية عند استعداد أهل تولوز للدفاع عن مدينتهم ضد الأمير لويس الفرنسي» (ص ٢٠٠).

ثم جاء الفصل العاشر والأخير بعنوان «**القرن الثالث عشر نهاية المطاف**» (ص ٢٠٣) فتناولت المؤلفة المدونة التاريخية الديرية التي ازدهرت في انكلترا في القرن الثالث عشر وعرضت كتاب «جوسلين» المسمى «أعمال سمسون الراهب» الذي قدم «مجالاً كاملاً للدارسين الذين يريدون فهم أعمال كل من الحكومة المحلية والحكومة المركزية في مطلع القرن الثالث عشر (ص ٢٠٣) ثم قارنت بين ما كتبه «جوسلين» وما كتبه مؤلف مجهول في كتاب اسمه «انتخاب هوف» ثم عرضت ما كتبه الاستاذ توماس (Master Thomas) كنموذج عن كتابات الأديرة حيث كان المذكور راهباً بدير مارلبوروف (Marlborough) بويلتشاير (Wiltshire) في مطلع القرن الثالث عشر «ويتكون موضوعه في أساسه من تقرير عن قضية قانونية» (ص ٢٠٤) وما كتبه ماتيو باريس في مدونته الكبرى المسماة (Greater Chronicle) التي رُصعت بالرسوم وتناولت التاريخ العالمي والتاريخ المحلي.

وبعد تناول المدونة التاريخية الديرية تناولت المؤلفة ما دوّنه الرهبان الشحاذون الذين كتبوا الحوليات والمدونات. من خلال عرضها كتاب «قدوم الرهبان الصغار إلى انكلترا الذي كتبه توماس الاكلستوني Thomasof Eccleston» ثم تناولت المدونة الضخمة التي تغطي الفترة ما بين (١١٦٨ - ١٣٠٤م) للراهب الفرنسيسكاني فراساليمبيني (Frasalimbone) والتي تضاهي ما كتبه ماتيو.

وتطرقت لنشأة التاريخ الوعظي Pulpit history الذي احتل بطرس المنشد قمته، وخلفه جيمس الفيتري (Jemes of Vitry) الذي غطى أحداث الشرق في كتاباته مع انه لم يكن صاحب نظرة تحليلية» (ص ٢١٦) وكانت مدونة فنسنت الكراكاوي البولندي (Master Vincent of Cracow) أكثر نماذج التاريخ الوعظي زخرفة وخيالية.

ثم انتقلت لما قدمه الشعراء العاميون المحليون من روايات تاريخية أرضت أذواق الناس وعرضت كتاب «تاريخ وليم المارشال» كمثال على ذلك ثم أشارت إلى ظهور كتَّاب الموسوعات فعرضت موسوعة فنسنت البوفيزي (Vincent of Beauvais) التي ألفها سنة (١٢٥٠) واختتمت الفصل بالإشارة إلى **اليواقيمية** التي أدت إلى الهرطقة إذ قدَّم يواقيم فيوري (Jouchim of Fiore ت ١٢٠٢) «نظاماً جديداً للزمن ونموذجاً جديداً للكتابة التاريخية» (ص ٢٢٦) يخالف الرؤية التقليدية الموروثة عن سان أوغسطين وأوروسيوس. وقد ظهر تعصب المؤلفة من خلال استعمالها كلمة المؤمنين للمسيحيين والكفار للمسلمين في الصفحة (٢١٤).

واختتمت المؤلفة كتابها **بخاتمة (ص ٢٣٢)** ألقت الضوء من خلالها على الكتابات التاريخية وما قدمته من معلومات وما سلكته من طرق وما اتخذته من أُطر وما وُظفت من أجله حيث كانت للترفيه حيناً وللفخر بالماضي حيناً آخر كما وُظفت من أجل الدعاية الدينية أو الفردية أو الإجتماعية مما أدى إلى انتحال التاريخ المزيف، والتضحية بالرشاقة الأدبية في سبيل الواجب نحو توفير المعلومات. ثم أشارت إلى أن السنوات «التي تلت ١٣٠٠/ شهدت تطورات جديدة في كتابة التاريخ كما شهدت مولد أفكار جديدة عن الكيفية التي ينبغي أن يُكتب بها» (ص ٢٤١) حيث ظهرت المدونات المكتوبة باللغات القومية، و«انكسر الشعور بالإستمرارية ولم تُقر مسألة الانحدار من عصر أفضل إلى عصر أسوأ» (ص ٢٤٣) وذلك بفعل الأفكار النيّرة.

وبهذا تكون المؤلفة قد غطت المرحلة التي تناولتها بشكل عام ولكنها أغفلت دور الحضارة العربية وما قدمته للحضارة الغربية، عن عمدٍ إذ لا مجال لإنكار ما قدمته الحضارة العربية للحضارة الغربية في شتى المجالات ومنها التاريخ وذلك عبر أقنية التماس الثلاث في الأندلس وصقلية والساحل السوري إبّان الحروب الصليبية.